

الفصل الثاني

عهد الموان

في اثناء خدمتي العسكرية ، كنت اعود احياناً الى القرية في اجازة وانزل الى اعماق المنجم للعمل ، وكنت رئيس عمال المنجم يضعني الى جانب المكا ، زيادة في الحذر ، وهم رجال من « الصفر » الذين يخوضون دائماً الانتخابات ضد مرشحي النقابة ، لتعيين مندوبي عمال المناجم، والمندوبين لدى صندوق الاغاثة .

ولدى عودتي من الثكنة ، وانتهاء مدتي العسكرية ، رفض رئيس العمال اعادتي الى المنجم ، فتحت علي ممارسة مهن عدة ، فكننت عامل بناء ، ثم دهاناً في المباني ، وهي مهنة مارسها اخي لويس، الذي اعدمه الالمان رمياً بالرصاص سنة ١٩٤٣ .

ركنت ابذل نشاطاً كبيراً في حركات الشبيبة الشيوعية ونقابة المناجم الاتحادية ، واتصل بغابرييل بيروي الذي كان يفتتح في صحيفة الطبيعة ، في تلك الايام ، حياته المجيدة بوصفه صحفياً شيوعياً ، وفي حزيران ١٩٢٢ قتل اربعة عمال اثناء

اضراب حدث في الهافر، واصلت «السي جي تي» اضراباً شاملاً مدته أربع وعشرون ساعة ، يوم ٢٨ حزيران ، ولم تبلغ عمال المناجم ، في نواحيننا هذه الانباء ، الا متأخرة ، ورغم ذلك اتبعوا شعار الاضراب ، وتقيدوا باوامر اتحاد النقابات ، وكنت قد اصيحت عامل الدعوة في منطقة كارفان ، فأخذت بعد فراغي من عمل النهار انتقل في المساء من اجتماع الى اجتماع على دراجة ، وفي سنة ١٩٢٣ اعلن عمال المناجم اضرابين اولهما في شباط والآخر في تشرين الثاني فأيدت الاول وعارضت الثاني :

اما اضراب ١٥ شباط فقد اعلن اثر احتلال الرور ، وكانت ارساليات الفحم الالماني قد توقفت مؤقتاً . وكان عمال السار مضربين فكانت تلك فرصة مؤاتية ، وبعد بضعة ايام من النضال انتزع العمال من اصحاب الاعمال ، زيادة في الاجور ، فأصدر مجلس اتحاد عمال المناجم الوطني اوامره باستئناف الاعمال ، وهكذا انتصر العمال .

وفي شهر تشرين الثاني ، كانت زيادة الاجور في بعض المناطق قد سبقت الاوامر باعلان الاضراب الثاني ، وفي هذه الظروف رفض عمال «السي جي تي» والعمال غير المنضمين الى نقابة ما، ان يستجيبوا لنا، وكنا قد نجحنا في شباط بمجملهم على الاضراب . اما اليوم فقد لاقوا فشلاً ذريعاً . كنت مناضلاً قتيماً ، فتعلمت من هذه التجربة المزدوجة درساً في الواقعية ،

وفي اثناء المناقشات التي جرت في مؤتمر اتحاد عمال المناجم ،
الذي انعقد في مونتسولي مين في حزيران ١٩٢٤ صرحت قائلاً:
« لا يخلق بانسان ان يعد رغباته حقائق ... فالثوري الحقيقي
هو الذي يبدأ بملاحظة الوقائع في ضوء حقيقتها وحدها ، وانني
ارى انه قد يتخذ في حال معينة قرار معين ، فاذا تغيرت الحال ،
يجب المبادرة الى اتخاذ قرار مختلف عن القرار السابق .. يجب
الانسحاب اذا لم تبد شروط النصر متوفرة ، والمبادرة الى المعركة
فوراً اذا املنا على العكس ، بنصر مؤكده ... وعلى كل حال ،
فلا يمكن ان يرتبط المناضل بصيغة او بقرار ... ولا يمكن ان
نسيء الى الحركة الثورية بامثال هذه المواقف » .

وكنت اذكر هذه الفكرة التي كثيراً ما اوضحها لينين :
« يجب ان لا نبقى خلف الطبقة العاملة . علينا ان نكون
امامها ، ولكن خطوة وحسب » وظل جدي عضواً في الحزب
الاشتراكي ولكنه كان يشجع نشاطي النقابي ، وكان يقدر
الشيوعيين ويحترمهم ، فاذا هاجمهم احد في حضوره صرخ :
« امنع ايأاً كان من التعرض للشيوعيين » .

وكان شعار المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية المنعقد عام ١٩٢١
هو : « اتجهوا الى الجماهير ، والفوا الجبهة المتحدة » ولم يفهم
المناضلون الشيوعيون في البادي كاليه ، حق الفهم ، ما تنطوي
عليه الجبهة المتحدة من خطة ، وكانوا يرون في الدعوة لها استسلاماً
للزعماء « الاصلاحيين » وشبه خيانة ، فكنت اناضل في المؤتمر

الاتحادي بآفيون ، في سبيل الجبهة المتحدة .

وفي مؤتمر باريس ، المنعقد في تشرين الاول ١٩٢٢ صوتت منطقة البادي كاليه بـ ١٤٦ صوتاً ضد الجبهة المتحدة و ٤٠ كانوا مع الجبهة . وكنت في المؤتمر مندوباً عن الاقلية الداعية الى الوحدة .

وبعد اشهر قليلة ، اقتدى جميع المندوبين بنا وآمنوا بوجهة نظرنا ، ومنذ تلك الايام ، والبادي كاليه مخلصه لمباديء الامية الشيوعية ولراية الوحدة البروليتارية .

وفي كانون الثاني ١٩٢٣ تم احتلال الرور ، فقام الحزب الشيوعي يناهض سياسة بوانكاريه ، وهي سياسة عنف قدر لها ان تغذي فيما بعد ، دعاوة هتلر الثورية .

ونشر الشيوعيون الفرنسيون نداء في اوساط جيوش الاحتلال : « العمال الالمان هم اخوان لكم ، فاتحدوا ! » وسرعات ما ظهرت نتائج هذا النداء ، ففي دويسبورج ودورتموند كان الجنود الفرنسيون ينشدون النشيد الاممي الشيوعي ويتقدمون المظاهرات الثورية . وفي ايسن رفضوا اطلاق النار على العاطلين عن العمل الذين احتلوا سراي الحكومة .

ولكن اعمال القمع جاءت ضارية عنيفة : واعتقل قادة الحزب وقادة «السي جي تي» (كاشان ، ومونموسو ، وسپار وغيرهم) وسجنوا بتهمة التآمر على سلامة الدولة . وفي سجن

السائتية اضرب غابرييل بيوري عن الطعام ؛ والتأم مجلس القضاء العسكري في ماينس ووزع ١٣٣ عاماً من السجن على ٣٧ جندياً من الشبان .

في تلك الايام العصبية انسحب من صفوفنا فروسار ، سكرتير الحزب ، ولصكنا تلقينا عضواً جيداً وهو الكاتب العظيم « هنري بربوس » صاحب كتاب « النار » ومؤسس « الاتحاد الجمهوري للمحاربين القدماء » .

في تلك الساعات الزاخرة بالنضال والاضطهاد ، وفيما كانت العاصفة تنقض على الحزب الشيوعي ، دعيت الى ادارة اتحاد البادي كاليه في البدء بوصفي امين سر مساعداً ثم في اواسط ١٩٢٤ اميناً للسر وهكذا اصبحت حزبياً مثابراً وثورياً محترفاً .

وفي مؤتمر ليون (١٩٢٤) عينت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، وفي اكتوبر ١٩٢٤ عينت اميناً للسر في منطقة الشمال ، وكانت تضم ثلاث نواحي : الشمال ، والبادي كاليه والسوم ، وكنت لا ازال عضواً في الاتحاد الوطني لعمال المناجم .

وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٤ مات لينين ، واعترانا الم هائل ، واحست البروليتاريا الاممية ومناضلوها بانهم اضحوا فجأة كاليتامي ، فوجه لينين غاب .

ولكن الثورة استمرت على الرغم من ذلك . فان طبقة

مؤلفة من الملايين ، تملك المستقبل في يدها ، تلقت تعاليم لينين .
مات لينين ولكن اللينينية كانت لا تزال تحيا وتنتصر .

وانا ، شأن جميع المناضلين من جيلي ادين بالكثير للينين ،
فتفكيره يجمع الى العمق ، بساطة تجعله في متناول الشعب ،
وكثيراً ما اتيح لي ان اطلع الرفاق الشبان على كتابيه في
« الثورة والدولة » « وامراض الطفولة في الشيوعية » فكانوا يؤخذون
دائماً بروعة ما يقرأون فيهتفون : « ما اجمل هذا وما ابسطه ! »

ان مؤلفات لينين غنية جداً ، فيجد فيها المناضل دائماً
مواضيع جديدة للتفكير ، واضواء يلقيها على المشكلات
السياسية ، وكيف تغلب على العقبات القائمة في طريق
الاشتراكية اذا لم ندرس كتب لينين ؟ ان اللينينية هي نظرية
الثورة العالمية البروليتارية المنتصرة .

ولينين ، هو ، قبل كل شيء ، المناضل في سبيل السلم ،
ففي غمرة الحرب الاستعمارية ، وفوق تفجر الاحقاد البهيمية ،
والاهواء الحيوانية ، والمظالم الشعبوية ، ناضل لينين في سبيل
السلم ، لاثغاء سلمى ضعيف ، ولا بالدعوة الى عدم الصمود في
وجه الشر ، ولا بالتصريح « بان العبودية خير من الموت »
ولكن بدعوة الجماهير الكادحة الى العمل الثوري ، والى تسلم
الحكم .

وعبقرية لينين كانت تحليلاً عبقرياً لظواهر التطور

الاقتصادي في عصرنا - تمركز الإنتاج الى اقصى حدود
التمركز وتحول المزاحمة الى اتفاقات الحصر وسيطرة هذه
الاتفاقات ، الى جانب رأس المال المالي ، وتصدير رؤوس
الاموال ، وهو يتخفى تصدير البضائع ، وتوزيع العالم على
التروستات الرأسمالية ، واعادة توزيع العالم كله على بعض
القوى العالمة الكبرى . لقد اكتشف لينين قانون التطور
الرأسمالي ، غير المتساوي ، في مرحلته الاخيرة ، اي مرحلته
الاستعمارية .

ومن ذلك خالص من ناحية الى طبيعة الحروب المحتومة بين
القوى الرأسمالية ، لاعادة توزيع العالم على قاعدة تناسب
القوى الجديدة، ومن ناحية ثانية، الى امكان انتصار الاشتراكية
في بلد واحد .

ولينين هو الدعوة المستمرة الى الثورة ، وهو المفهوم الثوري
الذي يترق حجاب الطوبونات الخيالية البورجوازية الصغيرة
ويحارب الانتهازية والنقابية الفوضوية، في خلال الظواهرات الزاخرة
بأعلى درجات التعقيد والصعوبة ، كان تحليل كل موقف تحليلاً
موضوعياً محسوساً يكشف عن « صلة الرصل » وعن جبل النجاة
الذي تعتم به الثورة للتقدم في طريق التطور الاجتماعي .

ولينين هو استراتيجية الطبقة العاملة الثورية وخطتها . وهو
الاتحاد مع الجماهير الكادحة في مزارع المستعمرات وشعوبها ،
وهو على نقيض من التروتسكية عدو الثورة التي تريد السيطرة على

الفلاحين بالارهاب والعنف فان اللينينية تلج على اهمية الفلاحين ،
وخترورة كسبهم اى معسكر الثورة الاجتماعية .

ولينين هو الحزب ، الحزب الثوري المنطوق فى نغمة
انعمارك الطبقة العظمى ، حزب الطليعة ، المسلح بنظرية
الطليعة ، وقائد الطبقة العاملة اى النصر ، هذا الحزب المؤلف
على قاعدة المراكزية الديمقراطية ، اقام دعائه لينين وكان يريد
دائماً ، وقبل كل شيء ، الحفاظ على وحدته ، وصيانتها من
عبث العابثين ، واخيراً: فلينين ، فى الظروف التاريخية للحزب
العالمية الاولى والاعوام التى تلتها ، هو النضال فى سبيل الحزب
الثوري الاممي البروليتاري ، وفى سبيل الاممية الثالثة ، وتربية
اعضاء الحزب وسائر العمال وفقاً لمبادئ الاممية البروليتارية
وروحها وخذ كل نظرة قومية او شعوبية ضيقة .

وهكذا لم تقتصر جهود لينين على الدفاع عن تعاليم ماركس
وانجاز وحمايتها من « المرتدين » والمزورين من اتباع الاجتماعية
الديمقراطية ، بل انه طور النظرية الماركسية ودفعاها الى الامام :
وفى هذا كتب ستالين يقول :

« اللينينية هي الماركسية فى العهد الاستعماري ، وعهد
الثورة العالمية البروليتارية ، وبكلمة اقرب الى الدقة : اللينينية
هي نظرية الثورة البروليتارية وخطتها ، على نحو عام ، ونظرية
ديكتاتورية الطبقة العاملة وخطتها ، بخاصة » .

وقدر ستالين نفسه ، وهو تلميذ لينين ومكمل نظريته ، ان يمنح النظرية الماركسية - اللينينية تطورات مهمة جديدة ، وان يعني ، بدوره ، تعاليم مؤسسي الاشتراكية العلمية ، وان يدفعها الى التقدم والتطور ، وقد عمم ستالين التجارب الضخمة للبناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، فالتقى اضواء نفاذة على مختلف مظاهر التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي ، في عهد ديكتاتورية البروليتاريا وظروفها ، لقد صاغ ستالين نظرية بناء الاشتراكية في بلد واحد .

* * *

في شباط ١٩٢٥ زرت الاتحاد السوفياتي اول مرة . هناك... حيث تحققت الثورة التي تنبأ بها ماركس ، دخلت خافق القلب ، الى هذا العالم الجديد ، الذي اراده العمال وصاغوه كما شاؤوا .

وكنت انظر بعين الاعجاب الى هذا الكون الذي يُبنى ، وهذه المدن التي تطلع من الارض ، وهذه المصانع التي تدور عجلاتها لا لمصلحة فئة قليلة اناية مستثمرة منحلة ، ولكن لمصلحة المجموع وفي خدمته ، وكانت وجوه العمال والعاملات تعلن في عزة وعزم : « لقد بنينا كل هذا بدون سادة ولا ارباب عمل . ونسيره بدونهم ايضاً » . وكانوا يجهدون بما يبذلون من تضحية وما يتحملون من حرمان ، لاعادة الحياة الى هذه الارض التي اكتسحتها الرأسمالية ونهبت خيراتها .

وفي رحلة ثانية الى الاتحاد السوفياتي ، زرت حوض المناجم في الدونيتز . فرأيت عمال المناجم الذين كانوا يعملون منذ ١٩٢٧ ، ست ساعات في اليوم ، ويستخدمون معدات حديثة متقنة ، ويتمتعون باجور تقاعدية ضخمة ، وبضمان اجتماعي حقيقي . والى جانب ارقى عامل في العالم ، ذلك المتحرر من نير رأس المال ، وسيد اقداره وموجد مصيره ، رأيت الفلاحين والمثقفين ، وقد حررتهم الثورة هم ايضاً ، يشغلون المراكز اللائقة ، في جمهورية عاملة ناشطة . وكانوا جميعاً متحررين من مشاغل الغد الممضة ، مطمئنين على مصائرهم ، كان في وسعهم العمل والانتاج . فمنازل الدعة تظل اوقاتهم العاصفة ، والمجموع هو الذي يعنى باولادهم . وشيخوختهم تنقضي سعيدة آمنة ، كأنها امسية نهار جميل...

وزرت مدارس ضخمة ، ومختبرات جميلة ، ومصانع مجهزة بالادوات الحديثة . وحضرت انتخابات مجلس السوفيات في موسكو ، وفي كل مساء كانت المواكب تتجه شطر ساحة « الدستور » لتقدم الى السوفيات لوائح المندوبين عن كل مصنع . وكانت اعظم شخصيات الدولة العمالية تحف لتحية العمال وتهنئتهم .

كانت تبدو لنا ، في كل مكان ، مشاهد من الديموقراطية الحقيقية : الجماهير الشعبية في الحكم . وكنت اقارن هذه الديموقراطية الحقبة بديموقراطيتنا الغربية الشكائية ، حيث

تعني الحرية ، في اغلب الاحيان ، بالنسبة الى الجماهير الكادحة ، حرية الموت جوعاً . وكنت اتصور الحياة الجميلة الرائعة التي توجد بها الطبقة العاملة حين تستولي على مقاليد الحكم في فرنسا ، وحين لا تنفق جهودها وقواها لبناء ثروة فئة قليلة من الناس ، والمحافظة عليها .

وثناء زيارتي الاولى لموسكو ، اصبحت سعادة لا توصف ، ولا تتاح لكثيرين ، وهي رؤية الرفيق ستالين وسماع حديثه . وكان تدخله في الحديث ، مرة بعد مرة ، على نحو يجمع البساطة الى العمق ، قد احدث اثراً قوياً فيّ وفي جميع المناضلين العماليين الذين اسهموا في اعمال اللجنة التنفيذية للاممية .

وفي اليوم السابق لموعد رحيلنا ، استقبلنا الرفيق ستالين ، واثرت بشاشته القلبية العفوية ف شعرنا بالارتياح منذ اللحظة الاولى . واستمرت احاديثنا اكثر من ساعتين ، وخبثنا الاطالة ، ولكن الرفيق ستالين ، بعد ان اجاب باسهاب ووضوح عن اسئلتنا ، اخذ هو بوجه الاسئلة ، وابدى يومذاك فكرة ظلت راسخة في ذاكرتي ، قال : « ان النفوذ الحقيقي لحزب من الاحزاب ، يقاس بالاعمال التي يستطيع هذا الحزب تنظيمها وقيادتها » .

ولدن توديع ستالين اراد بيار سيار ان يوجه الشكر باسمنا الى رفيقنا العظيم فأجاب ستالين ببساطة : « ولماذا الشكر ؟ نحن اخوان ، وانا انما اقوم بواجبي كأني شيوعي » .

وفما كان الاتحاد السوفياتي ينهض من بين خرابته الواسعة التي كومتها الحرب وسببها التدخل الاجنبي الاستعماري ، وفيما كان ينطلق منذ تشرين الاول ١٩٢٨ لتحقيق مشروعات الخمس سنوات ، في هذا العهد ، كيف كانت اوضاع فرنسا ؟ عيّنت الوزارة الزرقاء ، وبعد اربع سنوات تخلت عن الحكم مخلفة اسوأ الآثار ، فخلال هذه السنوات الاربع ارتفع القرض العام من ٢٥٠ الى ٢٨٠ مليار فرنك فلم يكن امام الكتلة الوطنية لتغطية هذه الفضائح المالية الا الاقتراض ، مرة اخرى ، وزيادة الضرائب والتتمضمض بهذه الكلمة الجميلة « المانيا ستدفع » غير ان المقيد من الحرب هم الذين اضحوا يفيدون من السلام . فكانوا يثرون من اعادة بناء المناطق المكتسحة المدمرة ، ومن نهب البضائع الاميركية ، ومن التواطؤ مع موظفي الدولة في سبيل عطاءات رابحة وعمليات بيع مريبة ، محققين بالف وسيلة ارباحاً عجيبة .

ونشأ اتحاد النواب الراديكاليين والاشتراكيين ، المعروف باسم كارتل اليساريين لمجابهة نواب الاكثرية المعروفين باسم « الكتلة الوطنية » . ووجه الحزب الشيوعي نداء الى الجماهير الكادحة تحت شعار : « هيا الى كتلة العمال والفلاحين » .

وكان البرنامج الشيوعي الذي تبناه مؤتمر ليون يدعو الى جبهة موحدة من جميع عمال المدينة والاريف في سبيل تأليف حكومة من العمال والفلاحين وكان يحذر الجماهير من الأعيب

« كارتل اليساريين » واو هامهم...

وتسلم « الكارتل » الحكم اثر انتخابات ١٩٢٤ فأحجم عن تطبيق برنامجه ، رغم اننا فضحنا نقص هذا البرنامج وعدم كفايته لحاجات الجماهير . وبذلت الفئة المستثمرة ، المهتدة في مصالحها ضغطاً قوياً وشددت الاوساط المالية العليا من حدة هجومها ، فأدت الى تدهور الفرنك ، وقلبت وزارة بعد وزارة . وفي ٢٣ تموز اعادت بوانكاريه الى الحكم ، وهكذا انتصر « جدار المال » على غرفة « الكارتل » .

وتميز عام ١٩٢٥ بالحرب في مراكش ، وقام الحزب الشيوعي بفضح الاسباب الاستعمارية لهذا العدوان على الشعب العربي ، ودور الشركات الكبرى ، من صناعية ومالية ، في النزاع ، وبخاصة دور بنك باريس والبلاد الواطئة . أجل ايها الشهداء المراكشيون . لقد بذلتم دماءكم للدفاع عن بلادكم ضد بنك باريس فاغفروا للشعب الفرنسي هذه المؤامرة على كرامته وكرامتكم . وانتم ايها الجنود الفرنسيون ، الذين بذلتم دماءكم في ميادين المستعمرات ، انتم انما بذلتموها وتبدلونها في سبيل الرأسمالين لا في سبيل بلادكم .

وقد قال لينين :

عند بلوغ الرأسمالية اعلى مراحلها ، تتحول الى نظام شامل للاضطهاد والارغام الاستعماري وخلق اكثرية سكان الكرة

الارضية خنقاً مادياً ، من قبل بعض « البلدان الراقية » (١) .
وهكذا يضطر المستعمرون ، لزيادة ارباحهم ومضاعفتها بلا
انقطاع ، الى بناء الخطوط الحديثة ، والمرافئ ، وانشاء
المؤسسات التجارية والصناعية ، وينتج عن هذا ، في البلد
المستعمر ، ظهور بروليتاريا عمالية ، ويقظة الوعي القومي ،
وتقدم التحرر الوطني .

ان حركة التحرر الوطني تضعف مواقع الاستعمار . والواقع
ان هذه الحركة هي حليفة الطبقة البروليتارية في الدولة المستعمرة
فالعمال وسكان المستعمرات يناضلون معاً ضد اعداء مشتركين
هم الرأسماليون المستثمرون . ان المعونة التي بذلتها الطبقة العاملة
الفرنسية ، للسكان المراكشيين تتفق ومبادئ العدالة والاخوة
التي يعتنقها العمال ، اي تتفق ومصالح العمال الخاصة ، في بلادنا ،
ونحن نضع دائماً نصب عيوننا كلمة ماركس :

« ان شعباً يضطهد سواه من الشعوب ، لا يعرف ان
يكون شعباً حراً . »

كان يقود الحركة المناهضة لحرب مراكش « لجنة مركزية
للعمل » عينت رئيساً لها ، فغادرت منطقة الشمال الى باريس .
وخلال صيف ١٩٢٥ ، عقدت مؤتمرات عمالية عديدة ،
وبخاصة في باريس وليون وليل ومرسيليا وبوردو وستراسبورج

(١) « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » لينين .

وبيزيه . وكنت ادعو الجميع ، في هذه المؤتمرات ، باسم لجنة العمل ، الى الاتحاد ، وتبنى المؤتمرون مبدأ الاضراب العام ، وفي ١٢ اكتوبر ١٩٢٥ اعلن الاضراب العام احتجاجاً على الحرب في مراكش وسوريا ، وعلى ضرائب كابو ، وفي سبيل زيادة جميع الاجور ، واشترك في هذا الاضراب مليون عامل ، وكان ذلك اول اضراب سياسي جماهيري شامل منذ نهاية الحرب وقد رافقه بعض الحوادث العنيفة في منطقة باريس ، وفي بيتو قتل العامل سابانيه ، كنا نتبع ، بمناهضتنا الحرب في مراكش ، اعرق تقاليد الاشتراكية والرايكية الفرنسية واقدمها ، ففي عام ١٨٨٥ حارب حزب العمال الفرنسي بقيادة جوريس ليفضح « خلية اليعاقب » المحتبئة خلف الحرب المراكشية والحملة على الهند الصينية ، وكذلك كشف القناع عن الدهاليز السرية المالية التي تهيء النزاع المراكشي وتمده ولقد فضح حرب اللصوصية الاستعمارية فقال ، في خطاب له في السابع من ايلول ١٩٠٧ : « ثمة في هذه اللحظة صحفيون مأجورون مفترسون ، وصرافون متهورون ، ورأسماليون متكالبون ، يجهلون مراكش ، وكأنها مغامرة جميلة مشمرة ، ولكن فيما ينطلق زبد الطبقات الرأسمالية العليا ، في مرج وحبور ، الى الشواطئ المراكشية ، نرى ، حتى في الطبقات البورجوازية الوسطى ، وحتى في الديمقراطية المزارعة التي لم تؤمن بعد بالاشتراكية الكاملة ، ملايين وملايين من الناس الذين يرفضون ان يراق ذهب فرنسا ودمائها في هذه المغامرات المجذبة الجائرة ، انها مغامرات تغشها رعشة

الجريمة ، ولكن هذه الرغبات في السلام ، لا تزال مبعثرة ،
او مغمورة ، او حائرة ، » .

في عام ١٩٢٥ تناسى القادة الاشتراكيون ، وعلى رأسهم
ليون بلوم وبول فور ، تعاليم غيد وجوريس ، فكانوا يبذلون
جهودهم لدعم الحرب اللصوية والعصابات والعدوان الاستعماري
في مراكش وسوريا .. بينما كنا نحن الشيوعيين نناضل في
سبيل السلام ، فانقضت تدابير الانتقام والقمع على مناضلتنا ،
فاعتقل منهم ٢٦٧ ونالوا اكثر من ١٢٠ عاماً من السجن ،
ولوحقت انا ايضاً وحكم علي بالسجن ١٤ شهراً .

* * *

وفي مؤتمر الحزب الشيوعي بليل (١٩٢٦) نهض الحزب
يحارب الانعزالية وضيق الافق ، وصرحت بوصفي عضواً في
المكتب السياسي واميناً لسر اللجنة المركزية ، بأن الشيوعيين
هم الوطنيون الصالحون الحقيقيون وهم افضل الفرنسيين :

« الشيوعيون ، هؤلاء الامميون ، هم الذين اصبحوا اليوم
افضل المدافعين عن التراث القومي ، والشيوعيون هم الذين
يرفضون اليوم ان يتسلم اصحاب المصارف الانكلوأميركية نتاج
عمل اجيال عدة ، غنيمة باردة ، ومن البدهي ان الشيوعيين
اذ يقفون هذا الموقف ، وحين يقولون ، على نقيض القادة
الاشتراكيين : « لا يزيد ان ندفع لاصحاب المصارف الانكلو

اميركية ، فذلك لا يعني انهم يريدون ادخال الفرع على قلوب اصحاب المصارف الوطنيين الفرنسيين ، ولكنهم يعبرون بذلك عن ارادتهم الواضحة وعزمهم على التحرر من ديكتاتورية اصحاب المصارف من اجانب ووطنيين على حد سواء .

واى جانب بياني هذه الناحية من نشاط البروليتاريا ، المحافظة على الثروة الوطنية ، وجهت التحية الى الحزب الشيوعي ، وارث التقاليد الثورية التي يعتز بها شعب فرنسا :

اذا كان ثمة اليوم من يستطيع الانتساب ، بحق ، الى جميع تقاليد النضال العمالي في منطقتنا ، تقاليد عمال مناجم آرتزين ، وشهداء فورمي ، وملاحى دانكرك وضحايا آرماتتير ، فهؤلاء هم المناضلون في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي .

وفي عام ١٩٢٧ استتدت الاتجاهات التدخلية في مختلف البلدان واشتد خطر الحرب على الاتحاد السوفياتي ، وتعددت الحوادث على الحدود السوفياتية المنشورية وعلى ساحل المحيط الهادى ، وكان كل يوم يطالعا بانباء ومؤامرات جديدة واعتداءات على سكة حديد الصين الشرقية ، واعتقال موظفين سوفياتيين ، وتعديات على الحدود ، وحوادث صيد... الخ... كان العسكريون اليابانيون يريدون الحرب ، ولكنهم كانوا يترددون ازاء سياسة الاتحاد السوفياتي المصمم على السلام ، وبخاصة ازاء قواه العسكرية المتصاعدة .

وقطعت انكلترة علاقاتها التجارية بالاتحاد السوفياتي ، وفي
فرنسة كانت البورجوازية الكبرى واركان الحرب يبذلون
جهودهم لاثارة الحرب على روسيا ، وادلى الماريشال فوش يوماً
بتصريح طنان الى صحيفة « ريفري » الانكليزية خلع فيه الى
ضرورة تدخل فرنسة فاجابه الحزب الشيوعي بجواب عنيف ،
وكان ذلك سبباً لاعتقال بعض الرفاق .

وزادت الصحافة الرجعية في باريس من حدة حملتها على
الاتحاد السوفياتي ، واغتنت فرصة خطاب القاه السفير السوفياتي
فطلبت نقله وكان لها ما ارادت .

وكانت الحالة تشتد خطورة يوماً بعد يوم ، وانشأنا نناهض
وحدنا الاحزاب الفرنسية مجتمعاً ، وناضل في سبيل السلام
وفي سبيل الاتحاد السوفياتي .

رأينا كيف اختلف « كارتل اليساريين » تحت ضغط الرأسمالية ؛
ثم عمد بوانكاريه الى انقاص الاجور ، وزيادة ساعات العمل ،
وزيادة استثمار المستعمرات ، وارهاب العاطلين عن العمل
« والسيطرة على الشارع بالحديد والنار » كما صرح يوماً ، فنصب
هذا الحاكم نفسه بطلاً من ابطال « الثقة الرأسمالية » وطبق سياسة
رأس المال المالي .

وناضل الحزب الشيوعي لتوحيد الطبقة العاملة والطبقات
الوسطى المستثمرة التي ادت بها الرأسمالية الى الفقر ، وصهرها
جميعاً في عمل واحد مشترك ضد البورجوازية العليا .

ولم يكن البعض ، في داخل الحزب ، ليفهموا الحطة القائلة بـ « طبقة ضد طبقة » التي اوضحت ضرورة اثر التحولات في الحالة العامة ، وكان دوريو ، قائد هذا البعض ، قد ضلل الرأي العام ، مدة ، بمواقف صاحبة لم يخف على احد ما فيها من مغامرة وانتهازية . وقام متطرفو اليسار في منطقة باريس يناهضون الانتهازيين ، منتهجين سياسة مغامرات ، تبالغ في تقدير قوى الحزب الحقيقية ، وطاقته على استئالة الجماهير ، ولم تكن ثمة الا قرارات بيروقراطية آلية ، مستحيلة التنفيذ ، ومظاهرات ثورية تفرقها الشرطة بالعنف ، وبعض حالات تحتم على اعضاء الحزب « اضراب القدوة » ، والطرده من الحزب لاتفه الاسباب ، واتهام الناس باخيانة والرجعية ، كانت هذه السياسة الحمقاء تحاول ان تجعل من الحزب فرقة منعزلة عن الجماهير .

وامعانا في هذه السياسة الغافلة ، دان المسؤولون الاول عن هذه السياسة المغامرة المجنونة ، بالمباديء التروتسكية ، وبعد ان تورطوا في اخطاء لا تحصى ، وفي حركات فاشلة كادت تقضي على الحزب ، قاموا يتهمون الحزب والاسمية ويلقون عليهما اعباء حماقاتهم . وكان علينا النضال في جبهتين : ضد الانتهازية التفاهمية وضد الانعزالية اليسارية ، وكان علي ان ابذل في ذلك اكبر الجهود .

* * *

في حزيران ١٩٢٧ وجهت الي التهمة التقليدية : « تحريض

رجال الجيش على العصيان ، ابتغاء نشر دعاوة فوضوية « ثم حكم عليّ بالسجن ستة اشهر وبغرامة مالية...

وبعد ذلك بمدة وجيزة، دعيت الى خدمة عسكرية اضافية، لمدة ٢٥ يوماً ، في الفرقة الهندسية الثالثة ، وولت اليّ مهمة في ترميم الجسور وبنائها .

وفي اليوم التالي لعودتي الى باريس ، ذهبت لاشتراك في اجتماع بمركز الحزب ، شارع لافاييت ، وعند خروجي هاجمنا مفتشو الشرطة وجواسيسها فنشبت بيننا معركة قصيرة الامد ، ونجحت في الافلات، تاركاً في يد احد رجال الشرطة مزقة من باقتي ، وشطراً من قميصي...

وبعد ايام قليلة تكررت الحادثة ، وكانت هذه المرة في مركز منطقة باريس ، شارع لافاييت . فقد حضر حشد من رجال الشرطة لاعتقالي . فمنعهم الرفاق من الدخول ، طالبين اليهم ابراز مذكرة التوقيف ، وانطلق رئيسهم ليستحضر المذكرة واغتنمت الفرصة فتنكرت وفررت...

وافتتحت عهداً من حياة متشردة قدر لها ان تستمر عامين . فكنت اعيش في منازل الرفاق ، وارقد فيها ، وابدل مكان سكني كلما سنحت الفرصة ..

كنت بنجاتي من الاعتقال ، ونضالي الشرطة السياسية ، قد صدف صدوفاً حاسماً عن بعض العادات « القانونية »

والانتهازية التفاهمية ، التي كانت شائعة حتى عند قادة الحزب الشيوعي ...

ولم يكن « الرفاق » يستلمون الى الشرطة وحسب ، دون ادنى مقاومة ، بل كان بعضهم يذهب مختاراً الى السجن او يتصل بالشرطة ويضرب لها موعداً لتسلمه ...

لم يعني ما حملت عليه من التشرذم ، من مواصلة نشاطي النضالي ، وحضور اجتماعات اللجنة المركزية ، وجلسات المكتب السياسي ، واجتماعات الحزب السرية ، بل انني خطبت يوماً في الجماهير اثناء انعكة الانتخابية عام ١٩٢٨ ، في مهرجان سياسي ضخم ، نظمه الحزب بجوار بلدة فايف فيل .

وفي انتخابات عام ١٩٢٨ هذه ، حيث عمد الحزب الى خطة « طبقة ضد طبقة » نلنا ١٠٧٠٠٠٠ صوتاً اي اتنا كسبنا ٢٠٠٠٠٠ صوتاً زيادة عما نلناه عام ١٩٢٤ ولكن عدد النواب الشيوعيين تدنى من ٢٦ الى ١٤ ! لان تقسيم مناطق الاقتراع أجري على نحو يتيح لجميع الاحزاب الاتحاد ضدنا وكان تقسيم الدوائر الانتخابية يشنت التجمعات العمالية ، وللدلالة على ذلك يكفي ان نذكر ان الحزب الاشتراكي قد نال ١٦٠٠٠٠٠ صوتاً فكان له مئة نائب !

وحاولت الحكومة تحطيم جهودنا الباسلة ، بعد ان فضحنا سياستها العدوانية الموجهة الى الاتحاد السوفياتي ، فضاعفت

الاعتقالات والالتهامات فكانت ترح المناضلين في السجون لصد
الحركة العمالية !

وحدثت في صفوفنا خيانات وهزائم كما يحدث دائماً في جميع
الاقوات الحرجة . كان العدو يسدد الينا ضرباته من الخارج ،
والكنه نجح ايضاً في التسلل الى داخل الحزب . وكانت ثمة
خونة مرتدون يخفون وراء سيليه وغارشري . وآخرون مثل
دوريو ، كانوا يبالغون في التحفظ والاختباء ، ليتسنى لهم
الامعان في الحياة...

في تلك الايام قألت جماعة باربيه سيلور التي اغتنتم فرصة
تفرق المناضلين في السجون والمخايء وتسلت قيادة الحزب
لتطبيق سياسة انغزالية تخريبية خائنة ، ولماذا لا اشير الى ان
دوريو وباربيه وسيلور كشفوا الاقنعة عن وجوههم ، فيما بعد ،
فاذا بهم عملاء عاديون لهتلر وخونة لبلادهم .

في حزيران ١٩٢٩ اجتمعت اللجنة المركزية في آشير
« بالقصر » التابع للبلدية الشيوعية . فحاصر رجال الشرطة البناية ،
فلجأت الى مخبأ سري ، ولكن رجال الشرطة ، وقد بلغتهم
انباء دقيقة ، اتجهوا مباشرة الى المخبأ .

وتجددت امثال هذه الحياة ، وبعد مرور شهر على اعتقالي ،
وقبل حدوث مظاهرة الاحتجاج على اخطار الحرب يوم اول
آب ١٩٢٩ ، اعتقل جميع اعضاء اللجنة المركزية ، دفعة واحدة
في فيلنوف سان جورج ..

وفي البدء سجنّت في السانتيه ، مع المعتقلين السياسيين
ولكن محكمة الجنايات في سار لفييل وجهت اليّ تهمة لا
اذكرها ، فجاء رجال الشرطة يوم ١٤ ثوز سنة ١٩٢٩ لنقلي
الى نانسى حيث حكم عليّ بسجنى ثمانية اشهر ، ونقلت في القطار
والى جانبي مفتشان في الامن العام ، اقتاداني الى سجن سارل
الثالث .

وما ان تمّت مراسم التسليم والتسليم ، حتى بدأت تطالعني
المفاجآت اذ اقترب مني السجنان وامرني ان اخلع ثيابي ، فدهشت
لهذا الطلب ونظرت اليه متسائلاً ولكنه اعاد قوله صارخاً :
« اخلع ثيابك » فأجبت بهدوء : لن اخلع ثيابي . وانا امنعك من
توجيه الحديث بهذه الصيغة المستهجنة (١) . فاحتقن وجهه غضباً
وجعل يهدر ويذبحر وشرع في التهديد ولكن عبثاً :

— اخلعوا ثيابكم .. او ابدأ باستعمال القوة !..

لم يعد يوجه اليّ الحديث بصيغة المفرد . وبعد قليل اخذ
يشتم وينغمم ولكنه انسحب متراجعاً ..

كانت الحجرة التي سجنّت فيها مظلمة ، رهيبة ، لا ينفذ
اليها الهواء الا بصعوبة . اما رائحة العفونة فتملوها صيفاً شتاء ،
لقد قدر لي ان اقضي في هذه الزنزاة البائسة عاماً كاملاً . ثم

(١) في الاصل « بصيغة المفرد » وتدل بالفرنسية على رفع الكافة بين المتعاطين
اما صيغة الجمع فدلّيل على الاحترام .

طلبت يوماً مقابلة رئيس السجن ، فم يابه احد لطبي ، ولكنني
احدثت من الضجة ما حققته . وحين جاء ابنته اني عزمت على
معاملي بوصفي معتقلاً سياسياً ، ولو كلفني ذلك الاضراب
عن الطعام . فلا الضرب ولا وسائل التهديد تثنييني عن عزمي ،
وسأحصل على احترام حقوقي بوصفي معتقلاً سياسياً . وحصلت
بالفعل على هذه الحقوق ، فعشت مع سبعة معتقلين سياسيين
آخرين كما كان يعيش رفاقنا في سجن « السانتيه » فكنا نقضي
النهار معاً والليل كل في زنزانه ، ولكن كان امامنا نضال
دائم لنجبر الحراس على احترام حقوقنا . فكان هؤلاء يدخلون
الى حجراتنا دون قرع الباب ، فطلبت اليهم ان يستأذنوا قبل
الدخول ففعلوا .

وكنا نجتمع الى زائرينا في قاعة النظارة وكان علينا
التحدث من خلال شبكة حديدية بحضور الحارس ، وبعد
الحاخذنا نخصص لنا حجرة للاجتماع . وكنت اجتاز يوماً ساحة
السجن متجهاً الى زنزاتي فناداني رجل يرتدي الثياب المدنية :

- هوه... انت... هناك...

فلم التفت اليه فسأل الحارس عن اسمي ثم صاح :

- توريو... انا اناديك...

فلم اعره اي اهتمام بل دخلت الى غرفتي الخاصة وما ان
اغلقت الباب حتى دخل الرجل صاحباً مزجراً فقلت له مجزم
وهدوه : اخرج حالاً يا سيدي...

– أنت لا تعرف شخصية محدثك .. انا قاضي التحقيق ...
– وانا عامل شيوعي ومعتقل سياسي وليس لي اي علاقة
بقاضي التحقيق ... اخرج !

ولم يلح في النقاش اكثر من ذلك ، بل خرج ..

وخلال مدة اعتقالنا ، نظمنا شؤون مدرسة لتثقيف رفاقنا
الشبان المعتقلين . وكانت الاعمال المشتركة ، والاحاديث مع
الرفاق لا تستغرق كل وقتي ، فكنت اغتنم الفرص لاستكمال
ثقافتي السياسية .

في مجرى الحياة العادية تستغرق المهام العملية وقت المناضل
العالي فتكاد لا تبقي له لحظة ، حتى ولو لم يضع في النوم الا
ساعات قلائل ، واما في سكون الزنزانة فيستطيع ان يركز
تفكيره في المسائل الكبرى ، وان يقرأ والقلم في يده ، وان
يفكر ويكتب ؛ وفي سجن شارل الثالث عدت الى قراءة
كتب ماركس وانكاز ولينين ، فما اقوى الفكر وما اغناه عند
اساطين الاشتراكية العلمية . فجميع ما تحدثنا عنه ، من التمرركز
الراسمالي ، وفقر الجماهير الكادحة ، وتطور المجتمع ، قد تحقق
في دنيا الواقع . وما كنت استطع رفع النظر عن صفحات
« البيان الشيوعي » المشرقة اللاهبة ، وهذا البيان صدر عام
١٨٤٨ ولكنه لا يزال الى اليوم يحتفظ بجدة بريقه وحيوية
معينه . وكنت احفظه عن ظهر القلب ، وذلك لاني درستة في

« بيتون » عام ١٩٢٤ لعمال قتيان اصبحوا فيما بعد مناخلين
مخلصين ، اما صفحات التحليل التي يوردها ماركس في « ١٨
برومير لويس بوناپوت » فكانت تساعدني على تفهم الحقيقة الفرنسية
تفهماً حسناً وثمة جملة لفتت نظري يشير فيها ماركس الى ضرورة
اتحاد الطبقة العاملة الفرنسية مع الفلاحين والطبقات الوسطى ،
وكان كتاب ماركس « صراع الطبقات في فرنسا » وكتابه
« الحرب الاهلية في فرنسا » يدعمان ايماني بالطبقة العاملة
الفرنسية . اليس العمال الفرنسيون هم احفاد اولئك الكومونار
الذين « كانوا يصعدون لاحتلال سماء الاجساد ؟ » لقد حقق
التاريخ رأي ماركس : « ان الطبقة العاملة في باريس و كومونيا
ستتجدان الى الابد بوصفها نغماً مجيداً للمجتمع الجديد .
وسيظل قلب الطبقة العاملة الكبير منظوياً على شهدائها ، اما
مضطهدوها فسرعان ما أوثقهم التاريخ الى خشبة اعدام ابدية والى
وتد تعذيب لا انفصام لهم عنه ، ولن تنجح صلوات كهنتهم
جميعاً في تحريرهم منه . »

لقد استعادت ثورة اكتوبر العمل الذي بدأه رواد سنة
١٨٧١ الابطال ، واكملته ، فبنت على رقعة مساحتها سدس
الكرة الارضية كوموناً ظافراً ، وانطبت في ذاكرتي فكرة
ماركسية اساسية : ان الحركة الديالكتية تحمل الثورة وتقيضها
في صراع دائم ، والثورة تجعل تقيضها دائماً اشد ضراوة وعنفاً ،
وتقيض الثورة يدفع هو الثورة الى الامام ويحملها على بناء

حزب ثوري حقاً ، وقد ربي فيما بعد ان أتتحقق صحة هذه
الفكرة حين بدأ الاعتداء الفاشي ٦ شباط ١٩٣٤ وجعلت الجماهير
الكادحة تنتظم ابتغاء بذل مقاومة متصاعدة ، ثم تحولت هذه
الجماهير الى الهجوم ؛

وزادني انكز يقيناً بان ليس ثمة عمل مثمر لا يرتكز على
الواقع . ففي ملاحظاته على برامج اللاجئين البلازكيين من
حركة الكومون (١٨٧٤) كتب يقول : «انها لسذاجة طفولية
ان يقيم الانسان لهفته الخاصة ونفاد صبره مقام الحجج النظرية » .
و كنت اجد في كتب لينين تفسيراً مدهشاً للظواهرات
المعاصرة ، تزداد قيمته لانه مستمد من بلادنا :

« ان سيطرة اتفاقات الحصر الرأسمالية تصبح ، على نحو
محتوم ، في ظل الانتاج التجاري والملكية الخاصة ، سيطرة
محصورة بأيدي فئة قليلة من اصحاب رؤوس الاموال المالية ،
وسيطرة نقر محدود من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة ،
سيطرة فظيعة بلغ من وضوحها وكونها واقعاً بيدناً جلياً في
جميع البلدان الرأسمالية : في اميركا وفرنسة والمانية ، انما
كانت مادة لالوف الكتب التي تصفها وتنتقدها ، من وجهة
النظر البورجوازية الصغيرة طبعاً (١) .

(١) لينين « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » .

واي خطة تتخذ الطبقة العاملة لتنتصر على خصومها ؟ يجيب
لينين : الاتحاد ! : « ان اتحاد البروليتاريه هو اعظم اسلحتها
في معركتها في سبيل الثورة الاشتراكية . »

ومنذ ١٩٠٢ قال لينين في كتابه « ما العمل ؟ » : « ان
الذين تعوزهم الثقة بانفسهم هم وحدهم الذين يخشون الاتحاد المؤقت
ولو كان ذلك مع عناصر غير موثوق بها ، ولكن الشرط
الضروري لاتحاد كهذا هو قدرة الشيوعيين على اقناع الطبقة
العامة بتعارض مصالحها ومصالح الطبقة البورجوازية . »

ومن مؤلفات ستالين كنت ادرس بشغف كتابه الجليل
الضخم « مسائل اللينينية » . ألم تكن المشكلة الكبرى التي
تعارضنا هي الوصول ، وقد اضاءت الطريق لنا تعاليم لينين
وستالين ، الى « تنظيم حزب جديد ، حزب مقاتل مناضل ،
حزب ثوري ، له من الشجاعة ما يتيح له قيادة العمال الكادحين
الى النضال في سبيل الحكم ، وله من الخبرة ما يحفظ عليه وعيه
في ظروف موقف ثوري معقد ، وله من المرونة ما يجعله يتخطى
العقبات المختلفة الانواع ، على الطريق المؤدية الى الهدف (١) .
وهكذا كنت احمل مطالعاتي لاقارنهما بالموقف في فرنسا ،
واجد عوامل تطبيقها وامكانياتها في بلادنا ، فكنت افيد من
ذلك درساً مزدوجاً و يقيناً بحاجة مزدوجة ايضاً : اتحاد
البروليتاريا والتحالف مع الفلاحين والطبقات المتوسطة لتحقيق

(١) يوسف ستالين . اصول اللينينية طبع فرنسا ١٩٤٧ .

هذه الغاية على احسن وجه : حزب شيوعي صحيح .

و كنت ارغب في قراءة كتب ماركس وانكلز في لغتهما الاصلية ، فعزمت على دراسة الالمانية وكنت اعرف بعض اولياتها فانصرفت الى الدراسة بهمة ونشاط ، وبعد شهر استطعت مطالعة « الاتي - دهرنج » ماركس دون صعوبات تذكر . وقد كنت لا ازال احس بالتقدير والاجلال للشعب الالمانى الذي اعطى الانسانية ألبير دورر ، وغوتبرغ ، وليسنج وغوته وهيجل وبيتهوفن وماركس وانكلز ... فظالم العهد الهتلري ، وصواعق النازيه افترية التي اكتسحت اوروبا ودمرتها ، وجعلتها اثراً بعد عين لم تحملني قط على اخذ الشعب الالمانى بحكم واحد شامل ، فانه يخلق بنا ان لا نخلط بين هذا الشعب وبين جلاديه .

كنت افضل من الشعراء الالمان غوته وهابني . الم يبلغ من مجرد غوته انه حيا انتصار الفرنسيين في « فالمي » ؟ ان مؤلفات غوته تزخر بالتعاليم الثورية : « مربرة يا صاحبي هي النظريات كلها ، وخضراء شجرة الحياة الجميلة » .

هذان البيتان من رواية فوست حيث يبين غوته ان الحياة تتخطى دائماً كل نظرية فكرية ، كنت اذكر بهما قول لينين : « ليست الماركسية مذهباً محدوداً ، بل انها دليل يقود الى العمل » .

وَكُنْتُ أَحِبُّ إِضْطِحاً كَلِمَةَ غُوتِهِ وَهُوَ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ
« فِي الْبَدْءِ... كَانَ الْعَمَلُ » .

أَمَّا هَنْرِي هَاينِي فَكَانَ شَاعِراً ثُورِيّاً حَقِيقِيّاً ، وَصَدِيقاً
لِمَارِكْسِ ، وَقَدْ جَارَ بِكُرْهُهُ لِلْمَسْتَشْمِرِينَ فِي أَغْنِيَتِهِ عَنْ « نَسَاجِي
سِيلِيزِيَا » ، وَكُنْتُ أَتَذُوقُ قَصِيدَتَهُ الْهَجَائِيَّةَ « مِنْ أَقَاصِيصِ
الشِّتَاءِ .. »

لَمْ يَكُنْ هَاينِي إِلَّا رُوحاً وَنَاراً . وَهِيَ هِيَ بِحِجِّي ، فِي بَارِيسِ
الَّتِي جَاءَ إِلَيْهَا مِنَ الرَّجَعِيَّةِ الْبُرُوسِيَّةِ ، الْعَمَالُ الْفَرَنْسِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا
يَرَوْنَ فِيهِمْ « مُرَدَّةً وَعَمَالِقَةً يَصُوغُونَ الْعُصُورَ الْجَدِيدَةَ وَيَطْرُقُونَهَا .. »

وَاخْتَرَقْتُ كِتَابَ رُومَانَ رُولَانَ قَضِيَانِ سَجْنِي فَتَمَتَّعْتُ
زَمَاناً طَوِيلًا بِصَحْبَةِ « جَانِ كَرِيستُوفِ » وَأَسْعَدْتُ عَزَلَتِي مَغَامِرَاتِ
« تَيْلِ أَوْ نَيْبِجِيلِ » حِينَ اسْتَعَدْتُ جُودَ الْفَلَانْدْرِ ، مَقَاطِعِي
الْعَزِيزَةَ ، وَشَفَقَهَا بِالْحُرِّيَّةِ ، وَكُرْهَهَا لِلطُّغْيَانِ جَمِيعاً ، وَمَرَحَهَا
الْوَاتِقِ ، وَسَخَرِيَّتَهَا وَتَفَاؤُلَهَا...

وَقَرَأْتُ بَعْضَ أَقَاصِيصِ أَنْتُولِ فَرَانْسِ ، وَهُوَ آخِرُ مِمثَلِ
لِلْفِكْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْبُورْجُوازِيَّةِ الَّذِي وُلِيَ وَجْهَهُ شَطْرَ الثُّورَةِ
الرُّوسِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ . لَقَدْ تَمَيَّزَ فَرَانْسِ ، فِي دِيمُوقْرَاطِيَّتِنَا ،
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ حَقّاً عَلَى أَعْنَةِ الْحُكْمِ ، فَكُتِبَ فِي قِصَّتِهِ
جَزِيرَةُ الْبَنْجُوبِينَ : « بَعْدَ أَنْ تَحَرَّرَتِ فَرَنْسَةُ مِنْ سُلْطَةِ الْمُلُوكِ
وَالْإِبَاطِرَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ جَهَرَتْ مَعْلَنَةً حُرِّيَّتَهَا ثَلَاثًا ، عَادَتْ فَخْضَعَتْ

لشركات المالية التي تتحكم بثروات البلاد ، وتوجه الرأي العام
بوساطة صحافة مأجورة او مشتراة .

وكتب اناتول فرانس ايضاً : « يظن الجنود انهم يموتون
في سبيل الوطن ... ثم يتبينون انهم يموتون في سبيل اصحاب
المنافع .. »

واوشكت مدة اعتقالي ان تنتهي ، ولكن كان علي ان
ادفع غرامة قبل خروجي من السجن ، وكانت عصبة باربييه
سيلور قد عازمت على ابقاء جميع من يمكن ان يناوئوها ، في
السجن ، ليتاح لها تطبيق سياستها التخريبية . وهكذا قررت ان
لا تدفع غرامتي ، وايقنت ان قادة العصبة على خطأ ، فعصيت
قرارهم ، وقدمت كفالة ، فاخلي سبيلي ، واقرني الحزب
والاممية فيما بعد على هذا العمل .

ها قد اصبحت حراً ، مليئاً بالعزم والنشاط ، وقد شجذت
ذهني مطالعات كثيرة نافعة ، وقد فكرت طويلاً في المسائل
التي تواجه البروليتاريا الفرنسية والمهمات التي كان علي انماها ،
وعدت الى موقعي من المعركة ، واستأنفت النضال ، وبعد
ذلك بقليل عهدت الى اللجنة المركزية بتهام السكريتوية العامة
للحزب .

ماذا حدث في الخارج ، مدة سجنني ؟ لقد اضعف الحزب ،
واغتنمت العصبة السيلورية الفرصة ، فتسلمت جميع الوظائف
والمهام ، وابتعدت بالحزب عن طريق اللينينية الصحيحة ، وكان

ذلك عن تصميم وقصد، وبدأت قوى الحزب تتدنى وعدد أعضائه يقل : فالأوساط الحزبية العليا تتخذ قرارات تحكمية، وتفرض انضباطاً وطاعة سلبيتين على أعضاء القاعدة ، خائفة كل مناقشة حرة ، متذرعة بالشك في كل انسان ، متخذة من الصمت المريب وسيلة للتوجيه ، ثم كتمت الأفواه جميعاً دون اي انتقاد مفيد محض ، فساد الحزب جو كأجواء الثكنات العسكرية ، هكذا فهمت « العصابة » القائدة المراكزية الديمقراطية التي دعا اليها لينين ، هكذا أصبح الحزب صورة مسوخة للحزب . لقد أصبح حزباً ضعيفاً عاجزاً منطوياً على نفسه، بدلاً من ان يكون الطليعة الواعية النشيطة ، للطبقة العاملة .

كانت « العصابة » تعلن تجاهلها التام لجميع الحقائق اليومية ، ناسية هذه الحقيقة الاساسية وهي : « ان السياسة فن الممكنات من الامور » فكانت العصابة تفضل الحملة الخطابية الفارغة على التحليل الموضوعي الملموس ، مؤدية بذلك الى فشل الحركة العمالية ومحلها وعجزها ، وكانت تهمل مطالب الجمهور الصغيرة وتركها بالاقدام قائلة «لقد انتهى عهد النضال في سبيل البفتاك» وكانت تهمل النشاط النقابي وتشم العمال الاشتراكيين .

وقد شهد الناس ، اثناء وجودي في السجن مناظر مؤلمة ، ففي صالة كابي ، وشابيني ، نشب عراك بين العمال : الاشتراكيون ضد الشيوعيين ! كان ذلك عهد دوريو الدافع الى المعارك بين الاخوان !

كان علينا ان نبني كل شيء بناء جديداً .

وفي البدء ، كان علينا تأييد مطالب جميع العمال ، بسيطة كانت ام مهمة ، وتوضيح اهميتها للناس ، وطلب تدخل الحزب ، لتأييد العمال في نضالهم .

اهملت العصبة امر «الضمان الاجتماعي» ولكن اللجنة المركزية عادت فتبنت اقتراحي للنضال في سبيل ضمان اجتماعي حقيقي ، يدفع اصحاب العمل اكلافه .

كان علينا ان نهم بجميع ما يهتم له العمال ، فلا نهمل مطلباً او حركة ، مهما دقت . هذه هي الخطة التي تبنيهاها ، فالشيوعيون يجب ان يكونوا ، كما اراد ماركس ولينين اعظم اجزاء الطبقة العاملة وعباً وحقاء .

وفرضنا على افضل مناخمين الانقطاع للعمل النقابي ، وكان علينا كذلك ان نخوض معركة عنيدة في سبيل انقاذ مبادئ المراكزية الديمقراطية مكافحين خنق الافكار واجداها : « لا أوثان في الحزب الشيوعي . فلتنتقح الافواه » (١) .

واخيراً كشف النقاب عن وجوه العصبة فابعدت ، واضحت الطريق الآن حرة مفتوحة للنهضة .

كان اتحاد البروليتاريا اعظم فكرة تشغل الحزب الشيوعي

(١) عنوان سلسة من المقالات لموريس توريز في صحيفة الانسانية اكتوبر

في تلك الايام ، فالشيوعيون لم يرضوا قط عن انقسام الطبقة العاملة الذي نشأ عن اقلية رفضت في مؤتمر « تور » الانحناء امام رغبة الاكثرية ، ورغم ذلك لبثنا نناضل دون كلال للقضاء على التفرقة وحشد جميع العمال في جبهة واحدة للنضال .

وفي البدء فشلت جهودنا ، فلم نبأس ولم نتراجع . وقد دلت الاحداث ، فيما بعد ، على صحة ايماننا ، وحقيقة ما نسعى اليه .

وظل الحزب الاشتراكي ، طوال سنوات عدة ، يعم آذانه عن ندائنا ، فلم يكن يجيبنا الا بالصمت والسخرية .

وفي السادس والعشرين من حزيران ١٩٣٢ اصدر هنري بربوس ورومان رولان نداء مؤثراً لاقامة مؤتمر عالمي عظيم ، لمكافحة الحرب ووجه الكاتبان نداءهما الى جميع «الرجال ذوي الارادة الحسنة » و الى جميع المنظمات العمالية ، والسياسية والنقابية والثقافية ، فقام زعماء الحزب الاشتراكي يناهضون المؤتمر ، متهمين الداعين اليه بخدمة دولة اجنبية ، معلنين انهم يطردون العمال الاشتراكيين الذين يسهمون في مؤتمر أمستردام او في نشاط احدي لجانه العدة .

اما نحن فكنا ، على العكس ، نبادر لاغتنام جميع الفرص التي تؤدي الى التعجيل بالاتحاد .

وفي خطاب ألقته بصالة بوليه اليوم الثاني من كانون الاول

١٩٣٢ صرحت رسمياً باسم حزبنا :

« ان الطبقة العاملة تريد الاتحاد ، والطبقة العاملة تطلب هذا الاتحاد بأعمق ما فيها من قوة وعزم ، والشبيوعيون يناضلون في سبيل هذا الاتحاد بجميع ما يملكون من قوة ، وهم يمدون يد الاخوة بجميع العمال الكادحين ، لنستطيع جميعاً التغلب على العقبات في طريقنا نحو وحدة الطبقة العاملة وانتصارها .

ونحن انما نقتنم كل فرصة مناسبة ، من مظاهرة او اضراب او اي احتجاج كان ، لنواصل مهمتنا في توحيد العمال ، وجمع شملهم ، للذال المشترك بين العمال جميعاً مهما كانت ميولهم ومنظماهم .

نحن تناضل في سبيل اعادة تنظيم « سي جي تي » موحد .
وطبقة عاملة موحدة ضد البورجوازية .
ونقابة موحدة .

وحزب واحد للطبقة العاملة .

* * *

ما زلت اذكر زيارتي في تلك الايام لهنري بربوس . وكان يسكن في فصل الصيف ، قريباً من سنليس ، دائرة « سيلفيا » وقد سماها باسم بطلة جيرار دي نرفال الشاعر الذي ابدع في وصف تلك الناحية من « الايل ده فرانس » وخلف لنا عنها صورة لا تنسى ..

كنت اتحدث مع بروس عن الوسائل التي تساعد على تحقيق وحدة العمال لنضال مشر ضد الفاشية ، بعد ان اخذ شبحها يرتفع في آفاق المانيا منذراً للعالم بكارثة جديدة ، وهو لم يكذب ينهض من الجراح الدامية التي رمتها الحرب الاولى .

وضاعفت اتصالاتي بالرفاق الالمان ، باذلاً جهدي لمعاونتهم في نضالهم الصعب . وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٣٢ زار تايلمان باريس فاستقبلته الطبقة العاملة الباريسية بما وسعها من الترحيب والحماسة ، وفي صالة بيليه التي تايلمان خطاباً ، وعقبته انا بخطاب آخر . وفي ١٧ كانون الثاني ١٩٣٣ ألقى كلمة في تأييد كارل لينينغهايت وروزا لوكسمبورج في مقبرة « فريدرنكفيلد » بمناسبة مرور ١٤ عاماً على اغتيالهما . وبعد ايام من مظاهراتنا استولى هتلر على الحكم ، وكان استيلاؤه عليه مصحوباً بجرائم عدة ؛ ولن انسى ما حييت جو برلين عام ١٩٣٣ ، فقد حملت عن اقامتي القصيرة في المانيا ما يشبه الشعور بالمآسي القادمة ، والكوارث الوشيكة ، من حريق الرايخستاغ الى معسكرات الموت والافناء ، ابان الحرب العالمية الثانية .